مجلة الآداب واللغات، المجلد 20 ، العدد 01، (ديسمبر2020)، ص ص: 88 - 95

مجلة الآداب واللغات
جامعة أبي بكر بلقايد،تلمسان / الجزائر
ISSN : 2676-1963/ EISSN: 2676-167X
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/416

جهود عبد الرحمن الحاج صالح في تأصيل النحو العربي

Efforts of Abderahmane Hadj Saleh in proving the originality of Arabic grammar

بن فطة عبد القادر * جامعة معسكر،الجزائر
abdelkader.benfetta@univ-mascara.dz

تاريخ المقال

الإرسال:2019/11/08 القبول: 2020/01/16 النشر: 2020/12/07

الكلمات المفتاحية

إصلاح الملكة اللغوية، توسيع الدرس النحوي،دحض التقليد

ملخص البحث

عبد الرحمن الحاج صالح من المحدثين الذين يعدّون العلم بالتراث منقبة للباحث ومدعاة للتفاخر به. فقد صيّره شيئا عظيما، وكان دافع القرآن الكريم جليّا واضحا، مع اهتمامه بالمشاريع اللغوية. حرص ملامسة المادة اللغوية الأصيلة ليصطفي منها ما يراه سليما وأصيلا تدعو الحاجة إلى تدوينه. يدفعه إلى ذلك التحري والتدقيق مع تجنب ما لا داعي إلى الإطناب والتطويل. ولعبد الرحمن الحاج صالح أصول في دراساته وبحوثه مثل عمله(السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة) إثبات ما جاء به القدامى من أهل العربية عن الدرس النحوي فقد عدّه من أسرار الدرس اللساني العربي الأصيل. و له مرجعية أفاد منها في تأصيل النحو العربي، ولم يأت عمله دعوة إلى التقليد سواء عن نحو أرسطو ولا تقليد الغرب كما فعل بعض النحاة المحدثين الذين عملوا على إقبار ضوابط النظام اللغوي العربي، وإسقاط الفكر اللغوي الغربي على النحو العربي. وقد أثبت حقائق النحو العربي من خلال نظريته المشهورة وهي النظرية الخليلية.

Abstract

Abdul Rahman Al-Haj Saleh is one of the first contemporary scholars who consider the heritage-based researches as a source of pride for the researcher. He made it a great matter, due to his Quaranic background. In his linguistic projects, He was interested in exploring a huge linguistic corpus, selecting what can be- according to him- right, original and its writing is required . Investigation, accuracy and avoiding unnecessary redundancy were his factors of motivation. Abdul-Rahman Al-Haj Saleh in his studies and researches, such as his work (scientific linguistic acoustics of the Arabs and the concept .....

Keywords

Linguistic balance reform,
Expanding the grammar lesson,
Refute imitation

* المؤلف المرسل

1. مقدمة:

أدرك عبد الرحمن الحاج صالح بوعي أنّ مجرى تأصيل النحو العربي بدا ملتزما بهذا الزخم للمؤلفات التي ارتبطت بعبقرية السلف التي فعلت فعلتها في نفس أهل الفصاحة، وكشفت عن فعالياتها ثبّتت وظيفة النحو الإيحائية القادرة على منح العمل الإبداعي وتبلوره. وحين نستجلي آراءه نقف عند رؤية متنامية لفلسفته غيّبت النمط التقليدي ومعطياته وسحبه إلى الرِّس، والإسراع إلى فتح مجراها القرآنية تدفعه في ذلك بواعث علمية تحمل على قناعة بالقدرة على تفجير ما تكتنزه ملكته. فقد أحضر مهاراته اللغوية التي تكونت لديه عندما كان يعيش تحت تمادي سلطة الفكر الغربي على التراث العربي، لم يلبث اقترابه من مؤلفات السلف طويلا حتى تمخّض عنه زيادة هائلة من الرؤى النحوية ذات مقاصد جليلة، شملت تفاصيل دقيقة عن استقلالية النحو العربي، اعترف برقيّه ودوره في حماية اللغة، فركّز على ضرورة تأصيله داخل أسوار مصادره الآمنة.

هذه التطورات وتزايد علو النحو العربي الناجم عن الارتقاء اللغوي أمّن له ترابطه ووظائفها الأساسية. ولم تعد النظرة إلى النحو العربي مجرد تخطيط لشبكة من المسائل، بل أصبح أعلى درجات التأصيل في توجيه التطور الدرس اللساني لفائدة النظام اللغوي.

السؤال المطروح:

هل تمكّن عبد الرحمن الحاج صالح بما أوتي من ملكة عقلية في التعمّق لفهم حقيقة النحو العربي، وإدراك ما وراءه من معان ومقاصد، مادام أنّه أمدّه بفيض من التفردات الراقية بغية تأصيله ؟

2. مشروعية الدفاع عن النحو العربي:

لقد ضرب النحو العربي بأصالته أعماق الدرس اللغوي، هيأ له القرآن المقومات لاحتضان تراكيبه المتنوعة. ولعل من معالم الأصالة أنه أمدّ التراث اللغوي بالثوابت التي تنير الحقل اللغوي. هذا ما أدركه عبد الرحمن الحاج صالح فضبط أصولها، وقيده بمعايير خاصة كمعيار الاستدلال والاحتجاج على منوال الأصوليين في طريقة استقراء النصوص. تجلّت أهمية النحو في فلسفة الرجل أنّه ترعرع ونما في كنف القرآن الكريم، ونشأ على أساس تخطيط رباني يبعث على الدهشة، وتشهد على عدم سبق الإنسان بالاشتغال في توظيفه. فلم ينشأ بصورة عفوية إنما وضع كوحدة أرقى وأرفع من غيره، نلمس فيه السر الإلهي من خلال معالمها الجليلة التي تدل على ضرورة الاعتراف برقيّه الذي يدركه متذوّق العربية.

كرّس عبد الرحمن الحاج صالح مبدأ التبعية للتراث بالوعي والفهم قصد تطويره، وجعله منارا يبعث شعاعه لكشف فلسفة هذا العلم وحلّ عقده، وقد سلك الاتجاه العلمي للإفهام والإقناع في تحليل مسائله(لقد بذل الباحث جهدا من أجل الحفاظ على اللغة العربية وإثرائها وجعلها وافية بمستجدات العلم الحديث، قادرة على الدوام عل أداء إرسالها أدق أداء فكان يصر على المعرفة بالنماذج القديمة التي تكسب المتن اللغوي الصحيح، لا العربية التي يغلب عليها السجع وانتقاء الألفاظ فلا يلزم امتلاك معرفة مستفيضة بالتفصيلات المعقدة للنحو العربي لأنّه لا ينظر إلى النحو على أنّه إعراب والتفهق، بل الأساس فيه هو التمسك بآليات الإعراب الذي يخلي المعاني.) (بلعيد، 2004)

كما أنّه أثبت صبغة الشاملة للنحو العربي استمدّ موضوعيته من مصادر اللغة كاشفا عن أنساق تركيبية بديعة، جامعا الأبنية الكلية للنص مستثمرا ما أنتجته قرائح العرب وعبقريتهم، يصب كلّه في نظام لغوي مشتملا على كلّ الاستعمالات اللغوية ذات الأنماط المختلفة، هذا ما جعله يلج في أسراره

واستقراء حقائقه والحرص على بيئته تحقيقا وتوثيقا، لأنّ علم النحو نشأ على يد كبار العلماء كأبي الأسود الدؤلي(69ه) وسيبويه(180ه) لتستقرّ ضوابطه ومضامينه في كتبهم، وكان معيارهم اللغوي الإتقان والدّقة لضبط القواعد لذلك محّصوا الكلام، ولم يقبلوا إلا ما يناسب الأقيسة العربية الفصيحة.

يؤكّد الباحث طبيعة علم النحو الذي يملك آليات جعلته يفرض على أصحابه المعارف اللغوية المدعّمة بالملكات لضبط محتوياته ومقاصده. والظاهر من مؤلفاته أنّه فهمه فهما عميقا لاعتماده على لغة القرآن، ما جعلهم يرفع عن اللغة الاضطراب في تراكيبها، وتوضيح مراميها، والكشف عن إعجاز القرآن. ولعلّ معرفته لأسرار هذا العلم جعله يدرك أساليب التعبير على نحو تلقائي ومن واقع اللغة وما ينفرد به القرآن من نظام متكامل نحويا. فلغة القرآن تجمع بين الذوق والنظام العقلي، أثرت علم النحو بطرق الأداء وسائل التعبير:(لغة القرآن الكريم للسان العربي المبين. وقد كانت أساليبه في قراءاته الموثق النموذج الذي اعتمد عليه أئمة النحو في الوصف والتقعيد.) (ولد أباه، 1429)

فقد أفاض في موضوعات كثيرة، وأعمل عقله في استنباط القواعد والأحكام. حدد الوظائف النحوية للأنماط التركيبية الذي شهدها الارتقاء اللغوي، وتأكيد وجوب وضع النحو العربي وتمحيصه ليصبح أداة إيحائية، من أجل تيسير أغوار الخطاب اللغوي والأدبي معا، وإخضاعه لنظام لغوي خال من التعقيد والتعسّف، ويحقّق الصّحة النحوية، اعتمادا على لغة القرآن في تحديد العلاقات الأساسية في الجملة على أساس أنّها وظائف، يؤديها كلّ مكوّن بحسب ارتباطه لما بعده وما قبله.هذه الطاقة سمحت له بأن يحدّد شروطا في التعامل مع نحو القرآن أن يكون النحوي صاحب علم لغوي ومعرفة بالقرآن والسنة معرفة دقيقة، والتبصّر في الخوض في قضايا النحو الذي فتح بابها سيبويه والخليل(170ه) في إخراج المسائل من حيز الإشكال إلى حيز الوضوح والتجلي(إنّ مالجأ إليه النحاة العرب القدامى أمثال الخليل وسيبويه بصفة خاصة من الوسائل العقلية ووسائل البحث عامة هو شيء اختص به هؤلاء النحاة وانفردوا به.) (حاج صالح، 2012) وأن تكون النظرة علمية مؤسسة على تعيين الأنماط النحوية المتوخى إيضاحها في السياق، وتظهر فطنته في إبراز الجوانب الدلالية في المواطن المختلفة من النص التي تتماشى مع الأنساق.

فالتصور النحوي عنده أساسه التأصيل والتجديد فعند حديثه عن العامل مثلا يقول: (ليست اللفظة الوحدة الصغرى التي يتركب منها مستوى التراكيب niveau syntaxiqueلأنّ هذا المستوى وحدات أخرى من جنس آخر أكثر تجريدا) (حاج صالح، بحوث و دراسات في اللسانيات العربية، 2012). ما توصّل إليه امتاز بالنضج انبعث من إحاطته باللغة على أنّها وسيلة للفهم واستنباط الأحكام. فقد اهتد بفطنته إلى الإبانة عن كثير من أسرار هذه الدرس، وهذا ما نجده مبثوثا في كتبه. فكانت المادة القرآنية برهانا على تناسق فاعلية علم النحو في الدرس اللساني، والنشاط الفكري، إمّا على المستوى المنهجي أو على المستوى الإجرائي.

يرى عبد الرحمن الحاج صالح أنّ الدرس النحوي اختطّ منهجه من القرآن الكريم، وأُدخل في بناء النظام اللغوي للعربية. فكانت أبوابه ذات طابع ثابت، وموضوعاته تأخذ الصدارة في الدراسات ذات الصلة بالعلوم العقلية. فجعله القرآن عنصرا في التفكير ووسيلة في نقل المفاهيم لغزارة المعاني والمقاصد، وصار لغة المصطلحات العلمية لدى المدارس النحوية. فوجد في مكوناته الغاية في تحقيق المعالجة المنطقية للتصورات المخزونة بصور أفضل وأكثر نضجا، فاستقرت مفاهيمه في دلالته. فبفضل القرآن

أصبح ركيزة رئيسة لدى أهل العلم من أصوليين ولغويين ومفسرين. ما قدمه القرآن للنحو من إضافة نقّح المادة اللغوية لذوي الاختصاص في اللغة لتوثيق علمهم.

وجد النحو أوجّ نشاطه في حضن القرآن الكريم، نضجت المسائل وتأصّلت المصطلحات. ولذلك انبرى إلى وضع آليات كفيلة بالحفاظ على نظامه في الكتابة. وعظم ذلك بملامسة ما يكتنزه النص القرآني من أنماط تركيبية. حفّزه إلى تصنيف المؤلفات لتكون حصيلة ثراء استلهمه لتنتفع به علوم اللغة والشريعة. فقد أمدّ القرآن الدرس النحوي بذخيرة نحوية للاحتجاج بالكلام الفصيح للتأكيد على مرجعيته في الموازنات اللغوية، واستنطاق حقيقتها المبثوثة في التراث. كما تيّقن أنّ في القرآن إشعاعا بيانيا تتبصّر به ما بلغته الدراسات النحوية مع ضرورة الوقوف على أحكامه لاستقراء ما جاء فيها من تلطف وإعجاز وتعليل، تجاوز كلام العرب إلى ظواهر جزئية أرست ضوابطه الكلية، وفهم ما اعتاص من تراكيب للكشف عن جوانب مهمة في الدرس النحوي. فالقرآن الإطار الوحيد الذي يؤدي به النحو متطلباته، ويفسر مقاصدها، ويخلق التواصل بين النص والمخاطب. فهو لا يقف عند مضمون السياق بل يحي الشعور الملائم مع التمتع بخصائص التعبير وتلوين الخطاب (فاللغة العربية استخرجت أصولها الإعرابية وغيرها فيما بعد من القرآن فقط فخلافا لما يقوله بعض المحدثين.) (حاج صالح، منطق اللسان في علوم اللسان) ففتح الرجل آفاقاً واسعة للمهتمين بالنحو العربي، فقد صار تأصيله مشروعاً لغويا واتجاهاً علمياً بعد أن كان تجاوباً سلفياً فطرياً مع مؤلفات المشارقة. ولما كان القرآن المرجعية التي لا تمارى، فإنه هيمن على سائر الحقول اللغوية، واكتسب النحو مشروعيته عبر التفوق وتخطي التقليد.

إن هذا النحو تمحور حول مسائل اختلفت فيها المدرستان البصرية والكوفية استفادت من القراءات القرآنية والشعر العربي، قدّم تفردات جديدة، واجتهادات متّنت العلاقة مع المرجعية المألوفة، فارتقت بالنحو إلى مستوى راق. واقتضى هذا الوضع أن تنضج المعالجة إلى مستوى الدرس النحوي المرتبط بالنص القرآني ولّد عن طريق التأليف علاقات داخلية تشكّل لحمة النحو العربي.

ارتقىّ عبد الرحمن صالح بالنحو العربي إلى مستوى عال لا تعسّف فيه، بل هو دال على قيمته اللسانية، ودقّة استعمالها ، فكان له معجمه الخاص الذي تفرّد به، وقرّب به طلبة العلم ليمتثلوا إلى سبلهّ. كما توصّل إلى التفاعل مع فلسفة السلف من خلال آرائهم في ورعاية ضوابطه في التفسير التي لا ينبغي تخطّيها، ما رأيناه في مؤلفاتهم النفيسة على مقدار النفع ؛ إذ جعل النحو العربي محور الدراسات العربية، واللبّ الذي قامت عليه، أزاحت التبعية والتقليد، ولم يدرك تحصيلها إلا أصحاب الملكة الثاقبة، استعانوا به في معرفة خصائص لغة القرآن.

3. جهود عبد الرحمن صالح في تأصيل الدرس النحوي:

لعبد الرحمن الحاج صالح جهود جليلة، وآثار لها وزنها في اللغة. فقد رصد حركة الدرس النحوي في الحقل اللغوي، اهتم بمسائله لاستنباط الأحكام من النصوص. لذا نجده يعالج موضوعات كثيرة في كتبه وأكد على ضرورة النحو في إدراك أسرار التراكيب ودلالتها. فقد ساهم في وضع اللّبنة الأولى في تأصيل أسسه، ولم يغفل عن شيء يستحق الخوض فيه،

إذ اجتهد في طرح مسائل كثيرة تشكّل ذخيرة نحوية، يغلب عليها الاستقصاء والتعمق في التحليل، واستنباط المبادئ والأصول من الجزئيات. تميز بالفطنة

وحسن تصريف الكلام والكشف عن المعاني بوجوه الأداء وأصول اللغة، إنّه يمثل قفزة مهمة في الدراسات النحوية التي اعتمد عليها العلماء والباحثون حديثا في منهج البحث العلمي والحركة اللسانية. فنظرا لأهميته اعتنى بكلّ ما يتعلّق بلغة لقرآن للتوصل إلى المقاصد من خلال ما يضمره السياق بغية تأصيل المعايير في استنباط الأحكام الناتجة عن تغيّر النمط التركيبي. فتنوعت طرق التأصيل والتجديد.

وجد اللغويون المحدثون في الإنجازات التي قدّمها إلى النحو العربي الإشعاع الذي يؤصّل العلم بالنسبة للطلبة والتأصيل عنده يعكس حقيقة التراث ليس كما يفهمه آخرون متأثرين بأفكار الغرب (فكأنّ هؤلاء المثقفين بجعلهم الأصالة في مقابل المعاصرة لا يتصورون هذه الأصالة إلا بالرجوع إلى القديم، فالأصيل في الواقع هو المبدع الذي يأتي بشيء لم يسبق إليه مهما كان الزم الذي يعيش فيه.) (حاج صالح، منطق اللسان في علوم اللسان) وقد تميّزت بالدقة في تناول المسائل النحوية، أزالت كثيرا من الغموض الذي اكتنف المصادر الكبرى في علم النحو كالكتاب لسيبويه من ذلك مفهوم المثال يقول: (إنّ مفهوم المثال هو مفهوم رياضي محض و هذا مخالفا تماما للمنطق غير الرياضي "غير اللوجسطيقي") (حاج صالح، منطق اللسان في علوم اللسان) كما دعّم الرجل رأيه بالتفريق بين اللفظة والكلمة قوله:(وأهم شيء يمكن أن نقوله ههنا هو أنّ المثال ليس خاصا بهذا المستوى تحليل الكلام الذي هو " اللفظة"بل هو موجودفي كل المستويات في أدناها كمستوى الكلمة...) (حاج صالح، منطق اللسان في علوم اللسان) وهذا الفرق الذي وقف عنه الرجل تجهله اللساني الغربية. فأوصلت النحو العربي إلى هيئته الصحيحة، يستطيع طالب العلم أن يأمن ما يقرأ، وبما يستشهد. وتمثل أعماله مصدرا من مصادر النحو بوصفها وثيقة شاهدة على صحة هذا العلم؛ فهي أكثر انسجاما مع اللغة، فيها أصول النحو وأحكامه، وما يوافق المقاييس دون حاجة إلى التأويل.

كما كان له إسهام في خدمة النحو العربي، فقد عكف على دراسة أسراره، وعرف كيف يقترب من نحو القرآن بأسلوب علمي جمع فيه بين ثقافته الخاصة وذكائه بغية التوفيق بين الإعراب والمعاني، فهو أشبه بعلماء الشريعة حتى أصبح مرجعا يعود إليه أهل اللغة للاستشهاد بآرائه النحوية . لقد عني بخدمة القرآن، وانصبت دراسته على نحوه، وكان يرى لا سبيل إلى مبتغاه إلا بالوقوف على أسرار القرآن التركيبية، وإدراك دقائقه، والإلمام بأساليب العربية، وكان حاضرا بذهنه وفطنته، فلا يقبل على كتاب الله وكلام العرب إلا مبينا للمعاني وأضرب الكلام.

أحسّ الرجل بضرورة التقرب من النحو العربي لمواجهة التحديات التي شنّها المستشرقون، والمتأثرون بالعجم الذين لم يكونوا صرحين في موقفهم (فحاولوا أن يصنعوا نحوا للعربية راجعين في ذلك إلى ملكته العقلية التي كانت قد رقيت رقيا بعيدا بتأثير ما وقفوا عليه من الثقافات الأجنبية، وخاصة الفلسفة اليونانية وما يتصل بها من منطق مما دعّم عقولهم دعما قويا وجعلها مسعدّة لأن تستنبط قواعد النحو وعلله وأقيسته.) (ضيف، 1119) أما عبد الرحمن الحاج صالح فقد اتّجه إلى إثبات الارتقاء العلمي، وعمل مخلصا على التماس الدقة في الدرس النحوي. وقد اجتهد في سبيل حمايته من خلال مؤلفاته مبينا فيها التجديد والقدرة على التعامل مع اللسان العربي. كان من أهم ما ألّف الرجل منطق العرب في علوم اللسان الذي أبدع فيها حتى صار مصدر إلهام.

فإبداعه في التعامل مع النحو العربي وطّن قوته، وعمّق الوعي بأهميته في الحياة العلمية. فحرصه تخطى الصعاب بوضع ضوابط تصون الدرس النحوي، فكان ما وضعه إشراقا لعصمته من الابتذال، وامتدادا

لما قدمه السلف كالخليل(إنّ النحو العربي قد وضع على أسس ابستمولوجية مغايرة لأسس اللسانيات البنيوية، و خصوصا في المبادئ العقلية التي بنيت عليه تحليلاته.) (الحاج صالح) فقد أسهب في إظهار آليات النحو العربي من خلال مؤلفاته، ووظف ملكته في التعامل معها فهي مبنية على القوانين تحكم الأحكام، وألغت مبدأ التبعية قصد تطوير الدرس النحوي، وجعله منارا يبعث شعاعه لكشف فلسفة هذا العلم وحلّ عقده جهوده اللغوية ، أصالة النحو العربي، تجديد الفكر النحو. فبادر إلى إثبات أصالة النحو العربي حين أحس بضرورة فهم أسرار اللغة للتمييز بين اجتهاده وعدم تقليد المشارقة. وقد ارتكز على القرآن الكريم بالدرجة الأولى قبل الحديث والشعر(إن علوم اللسان العربي من لغة ونحو وبلاغة وعروض تنبثق كلها كما هو معروف من النظر العلمي في لغة القرآن وكان العرب شعرا ونثرا.) (الحاج صالح، بحوث و دراسات في اللسانيات العربية)، فنبّه على كثير من الأحكام فاتت نحاة المشارقة. فالتمس الموضوعية والدقة في التعامل مع ما كتبه سيبويه والخليل وغيرهما لإبلاغ المتعلم على ما يهدفون إليه، فآثر أسهل السبل للتوضيح والتبسيط لما نعت بالغموض. تصرف في الإعراب تصرفا طال به شرحه، ينقل المتعلم إلى أجواء الأداء النحوي الذي يظهر مهمة الكلام في التأثير والاستمالة، بعرض الصيغ القياسية على نسق جديد لإظهار سماحة العربية.

إنّ تمسّك الرجل بالنحو العربي لم يقف عند ارتقائها إنّما أبان على أنّه جوهر اللسان العربي يتّصل بوجود الأمة. فإبداعه في التعامل مع أسس على تقديسه، وتوطين قواعده على وعي عميق بأهميته في الحياة العلمية. وبوصفه آلة عقلية فهو الرابط المتين بين المستويات اللسانية.فأفصح عن قدرة فائقة وثقافة واسعة في الإحاطة بأسرار النحو العربي، وخفايا الأسلوب العربي، إلى جانب اطّلاعه على كتب النحاة القدامى كسيبويه والجرجاني، كما كان مطّلعا على أصول اللغة في كلام الصحابة، جمع إلى جانب ذلك كثيرًا مما يتصل بالمأثور. اتّجه إلى إثبات أصالة الدرس النحوي، وتجديده عن طريق ملامسة ما أنتجه كبار النحاة الذين عملوا مخلصين على التماس الدقّة في التسهيل، لجعل النحو العربي خاليا من التزمت الذي انتاب بعض المصنفات كما هو الشأن عند ابن مضاء 592هـ الذي أعلن ثورة الظاهرية على المدارس النحوية، فقد وجد في كلام الله الأرضية الثابتة لاستلهام منهجه.

لاحظ أنّ هذا النحو ضرورة للغوي فهما ودرسا وللنحوي تطبيقا وتفصيلا. فهو من أهم العلوم اللسانية في الترجيح بين الأقوال المتباينة واستنباط القواعد النحوية(وعلى هذا، فالنحو كهيكل للغة وهو بذلك صورتها و بنيتها شيء و النظرية البنيوية التي علم النحو شيء أخر.) (الحاج صالح، بحوث و دراسات في اللسانيات العربية) .

وكان يرى قد يخطئ من يظن بأن الدلالة اللغوية تختصر على المستوى المعجمي، ولا تتجاوزه إلى المستوى النحوي الذي يمثّل في الحقل اللغوي كلّ الأنماط التركيبية. وأنّ الاهتمام به دليل على الأصالة فقد صان اللغة من الابتذال، ومنح القدرة للمهتمين بها من الولوج في أسراره واستقراء حقائقه والحرص على بيئته تحقيقا وتوثيقا، ما جعل الدرس النحوي ينشأ على يد كبار العلماء كالخليل وسيبويه لتستقرّ ضوابطه ومضامينه في مصنفاتهم(إنّ الخليل وسيبويه لا ينطلقان في تحليلهما الكلام من أي افتراض، بل من الواقع المحسوس...فالنحاة العرب لا ينظرون إلى اللسان في ذاته، بل ينظرون أيضا إلى تصرف الناطق بمبانيه.) (الحاج صالح، بحوث و دراسات في اللسانيات العربية)

كانت قراءته واعية للنحو العربي، وأدرك أهميته ومسائله تحتاج إلى معرفة عميقة بمنطق اللغة. وما يميّز رؤيته الإتقان والإلمام، واتّسمت بالتدرج في

المعنى في الإطار العلمي اقتنع بالعلاقة المنطقية بين منهج النحاة والمناطقة، فانتصر لرأيه ودافع عنه، وتعمق في التفصيل . جمع فيه بين منهج النحاة، وفلسفته، فسّر عدة قضايا نحوية، واستدل عليها بكثير من الآيات القرآنية وأقوال العرب. وكان غرضه الذي امتثله في آرائه التوضيح والإقناع، والتبسيط والتخفيف على المتعلم، وتسهيل الطريق لطالب العلم من الاقتراب من النحو العربي، وأزال التشكيك والوضع، وقدم صورة سليمة لعلم النحو، كما أعطى دفعا جديدا للتأليف لتعزيز الحركة اللسانية. أثرى الدرس النحوي، فأصبح يملك روافد لكل المسائل النحوية ساعد طلبة العلم من الدخول إلى التقعيد والتأليف، ومنحتهم القدرة العقلية والعلمية على مواجهة حملة المستشرقين الأمر الذي دفع بهم إلى الاجتهاد، ووضع الضوابط لتمكين المتعلم من فهم أسرار النحو العربي وتعبئته لغويا حتى لا يتوغل الدخيل إلى لغته.

فمؤلفاته إثبات ما جاء به القدامى من أهل العربية عن الدرس النحوي فقد عدّه من أسرار الدرس اللغوي العربي الأصيل. له أصول أفاد منها في تأصيل النحو العربي، ولم يأت عمله دعوة إلى التقليد إنّما ضبط أسس النحو العربي، وإثبات حقائقه من خلال فلسفته ومنهجه في الكتابة(فالأستاذ من العارفين بالتراث العربي الداعين إلى قراءته وإعادة قراءته بوعي وتمحيص وتطعيمه بمفاهيم آنية، فهو من الباحثين المجددين في مجال اللسانيات الحديثة.) (عيساني، 2008)

لقد عرفت حياته انتعاشا منذ دراسته للتراث، حيث حملت معها شحنة فائضة دفعته إلى البحث عن المزيد، وراح يقبل على تلقي العلم والمعرفة من مصنفات السلف في مختلف العلوم اللسانية المشهود لهم بالكفاءة.

أثبت وحدة النسيج للدرس النحوي، ليحتوي إضافات معينة ترتبط بتكوين الملكة التي تدركها الأذهان، ويكوّن صورة حقيقية للنحو العربي يرتكز عليه إدراك المتعلمين. وهكذا أضفى التدقيق العلمي على الموضوعات التي تثير الاهتمام، كما يلعب دورا كبيرا في تسهيل عملية الحفظ؛ فطلبة العلم يميلون إلى النصوص الدقيقة، فتحاليله النحوية جاءت متميّزة به، استحوذ على ملكة تلاميذه التي وجدوا فيها راحة أدركوا من خلالها أصالة النحو العربي. ووضع مجموعة من التفردات صاغها في تراكيب مختزلة أعاد فيها مفاهيم واستعمالات، ضبط فيها مواطن الاتّفاق والخلاف، والشارد والنادر مع أدلتها. كلّ هذا قيّده في منطق العرب في علوم اللسان والسماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة اللذين لا يمكن الاقتراب منهما إلا من أوتي ملكة في النحو، فهي تحوي مسائل مهمة تتطلب تمرسا. لا يكاد يخرج عما كتبه السلف، فقد كان له وعي بجميع القضايا النحوية. فتتبع ما ذكره الخليل سيبويه، ولم يقف عند هذا بل كشف عن مساهمته الكبيرة في تطوير الدرس النحوي، ولو نظرنا إلى مؤلفاته لوجدناه من أكثر النحاة استيعابا للتراث النحوي .

بعد هذه الوقفة المتواضعة مع جهود عبد الرحمن الحاج صالح الذي لم يتحرج من مخالفة غيره، وتغليطهم في مجوعة من المسائل، ولم يذب في نحو المتأثرين بالفكر اللغوي الغربي، فقد أثبت ملكته في الترجيح والاجتهاد. ولم يكن متزمتا في نهجه، فاجتنب الطعن في آراء المشارقة، ولم يرمهم بالقصر في العربية.

كانت غايته النبيلة هي إثراء النحو العربي وتأصيله انطلاقا من القرآن الكريم والكلام العربي الفصيح، وتوسعة الدراسات النحوية، وازدياد النشاط اللغوي. لم يترك صغيرة ولا كبيرة من الظواهر النحوية إلا خاض فيها بالتأليف والشرح لضبط النحو العربي

ضبطا سليما. فبفضل جهوده نجا النحو العربي من التغريب، وأقبل أهل العلم على مدارسته، فكانت آراؤه مودعة بالإشعاع، رابطة حبله المتين، داحضة النسيان والإهمال.

- المصادر والمراجع:

المختار ولد أباه. (1429). تاريخ النحو العربي في المشرق و المغرب. لبنان: دار الكتب العلمية.

شوقي ضيف. (1119). المدارس النحوية. دار المعرف.

صالح بلعيد. (2004). المقاربات منهاجية. دار هومة.

عبد الرحمن حاج صالح. (2012). بحوث و دراسات في اللسانيات العربية. الجزائر: موفم للنشر.

عبد الرحمن حاج صالح. (2012). منطق اللسان في علوم اللسان. موفم للنشر.

عبد المجيد عيساني. (2008). النحو العربي بين الأصالة و التجديد. ابن حزم.